وكلما كان الكلم الطيب أسعد، فهو بطبيعة الحال أصعد ثم أرفع، فالكلم الطيب الذي يطيب الجماهير المحتشدة، دون اختصاص بمكلِّمه، صعودها وارتفاعها هما بميزانية آثارها قضية الجزاء الوفاق وعند الله مزيد.

ورأس الزاوية في ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] ثم يتلوها ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ومن ثم تتمة الولاية التوحيدية وهي الزاوية الثالثة ولاية علي عليه السلام والأئمة من ولده الطاهرين عليهم السلام[2].

فالكلم الطيب هو «الولاية» بصورة مطلقة، الشاملة لهذه الثلاث، وكل كلم طيب يتبنى التوحيد كأصل، ومن ثم المعاد وهو لزام التوحيد، كما النبوة، ثم الولاية الرسالية المتمثلة فيمن يحملونها كما هي. إذاً فالكلمة الطيبة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي الكلم، حيث تجمع في حقها وحاقها كل الكلم الطيب.

فـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ فها هي في الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، عزة الحَظوة المعنوية، وعزة الزلفى إلى مبدأ العزة ومنشئِها.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٣٥٨ - الطبرسي في الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد سأله ابن الكوا قال: يا أمير المؤمنين كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك؟ قال: ثكلتك أمك يا بن الكوا اسأل متعلماً ولا تسأل متعنتاً، من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصّافات: ٣٥]! قال: يا أمير المؤمنين عليه السلام فما ثواب من قال: لا اله إلا الله؟ قال: من قال: لا إله إلّا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود من الرق الأبيض، فإذا قال ثانية: لا إله إلّا الله مخلصاً خرق أبواب السماوات وصفوف الملائكة حتى تقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة مخلصاً لم تنته دون العرش فيقول الجليل اسكني وعزتي وجلالي لأغفرن لقائلك بما كان فيه ثم تلا هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠] يعني إذا كان عمله خالصاً ارتفع قوله وكلامه.

(٢) المصدر عن الكافي بسند عن الإمام الرضا عليه السلام في الآية قال: الكلم الطيب هو قول المؤمن لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله وخليفته حقاً وخلفاؤه خلفاء الله والعمل الصالح يرفعه فهو دليله وعمله واعتقاده الذي في قلبه بأن الكلام صحيح كما قلته بلساني.

والعرش بمكانه ومكانته هو مصعد الكلم الطيب كما هو مصعد الملائكة: «ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه»[١].

فليست العزة عناداً جامحاً على الحق، جانحاً غارقاً في أنانية الشهوات، ضارباً في كل عتو وتجبر واستكبار، فإنها تنازلات عن صراط الإنسانية إلى حمأة الحيوانية النكراء!

إنما العزة هي الاتصال بمعدن العزة غير المحدودة، بالتقرب إليه والزلفى لديه، في سلب مطلق «لا إله» سلباً لكل عبادة وخشوع وخنوع آفاقية وأنفسية، ثم إيجاب مطلق «إلا الله» فلا يعبد إلّا إياه، ولا يطيع إلا إياه، هنالك ترتفع الجباه صامدة في سجودها لله، متعالية عن الخنوع لغير الله!.

هذه هي العزة وهؤلاء هم الأعزة! لكن:

﴿... وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾:

هنا ﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهناك «يعملون السيئات» دون مكر، وهنالك حسنات هي - بطبيعة الحال - خالية عن كل مكر، حيث المرائي في حسنات ليست حسناته حسنات.

﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ابتغاء العزة منها وهي - في الحق - من أسباب الذلة، و﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إراءة للضعفاء والمستضعفين أنها هي أسباب العزة، ذلك المكر الماكر يجعل من سيئاتهم عقبات متعديات أن يضل بها من لا يعقلون، ويغتر بها من لا يشعرون وهنالك الطامة الكبرى!

لفاعل السيئات غفران أم عذاب غير شديد، ولكن ماكر السيئات له

(١) في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام وضمير الجمع في إقرارهن راجع إلى السماوات.

عذاب شديد ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ بائر غير سائر إلّا ردحاً من زمن الامتحان ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]!

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ هل تعني خلق الإنسان الأوّل وزوجه فإننا خلقنا بخلقهما و﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تعني خلق سائر الإنسان إلا أبوينا الأولين؟ وقد يبعده ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ حيث الزوجة ابتدأت منذ الأولين المخلوقين من تراب! أو تعني ﴿خَلَقَكُم﴾ كل الخلق أولاً وأخيراً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلّا الأولين، ولكن ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ توخر الزواج عن الخلق من نطفة، فتخرج الزواج الأوّل!

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ بعد ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تختص الزواج بغير الأولين كما النطفة، ولكنهما لا تخصصان ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بالأولين، حيث النطفة أيضاً مخلوقة من تراب، مهما اختلف تراب عن تراب، وتؤيده آيات خلق الإنسان - ككل - من تراب أو طين[2]:

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ عنصر ميت في أصله، حيٌ في نسله منذ النطفة حتى الجنين حيث تتم الحياة الإنسانية، فمن أين أتت هذه الحياة وكيف وأنى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3]!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

(٢) ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]؟ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٠] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [غافر: ٦٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ [الحَجّ: ٥].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

فالنقلة من حياة إلى حياة أرقى هي قريبة، ولكنها من موت إلى حياة بعيدة غريبة، إلا أننا نعيشها على مر الزمن، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]!

ثم هذه النطفة في صورتها الوحيدة، وهيدة لانقسامها إلى ذكر وأنثى ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ - سبحان الخلاق العظيم! ومن ثم حمل الأزواج بكمه وكيفه ليس إلّا بعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ والنص في إطلاقه العام يتخطى أنثى الناس إلى كل أنثى، و«من» هنا تأكيد مستغرق للنفي وهو العام المستغرق لكل أنثى:

من حيوان البر والبحر والجو، ومن الزواحف والحشرات ما تلد وما تبيض، فالبيضة حمل من نوع خاص إذ لا يتم نموه داخل الجسم، بل ينزل بيضة ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها أم حضانة صناعية أما هيه؟ حتى يصبح جنيناً كاملاً ثم قفساً ومتابعة لسائر نموه الحيوي! فكل حمل وكل وضع هو بعلمه كما هو بقدرته ثم:

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾... وهو اللوح المحفوظ، دون كتاب المحو والإثبات، حيث الآية تنحو منحى العلم الثابت، أن يعمر معمر عمره حتى الأجل المحتوم، أو ينقص من عمره لأجل معلق، و«عمره» هو المحتوم لا يزيد عليه وقد ينقص.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد، العسير العسير هو ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وأنتم تعيشونه طول الحياة وعرضها، فبأحرى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الرجع في الأخرى ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بل هو أهون عليه.

(١) سورة ق، الآية: ١٥.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

كما البحران مختلفان في الصورة، متفقان في سيرة الرحمة النافعة المترعرعة اليافعة، فهما معنيان لوحدة الفائدة، كذلك الموت والحياة، ففي كلٍّ عائدة، مهما كانت بعد الموت زائدة خلاف ما يزعم من صورته.

فالبحر العذب: المستطاب، الفرات: الذي يروِّي العطشى بساهل انحداره في الحلوق، وبارد طبعه وعذوبته، والبحر الملح: غير المستطاب للشراب، الأجاج الحارق الحلوق لملوحته المرة، هما على حالتهما المتضادة - مع بعض - من نعم الله حيث يلتقيان بتسخير المنان في خدمة الإنسان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

والبحران قد يعنيان - ضمن ما يعنيان - مثل المؤمن والكافر، حيث العناية في بقاء الكافر رغم كفره قد تكون لما يخرج منه المؤمن ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[2] و﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ إذ يخرج الله الأحياء من الأموات كما أخرج الأموات من الأحياء!

إرادة التنويع في خلق الماء بواقعها ظاهرة، ووراءها حكمة ظاهرة في العذب الفرات، باطنة في الملح الأجاج، فمهما كان العذب الفرات سائغاً شرابه، ولكن الملح الأجاج سائغ فائق لحمه وحليه، وإن كان ﴿وَمِن كُلٍّ

(١) سورة النحل، الآية: ١٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وأين حلية من حلية ولحم من لحم؟

و﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو الأسماك المحللة دون لحوم البحر كلها حتى الكلاب والخنازير، فإنها حرمت بالسنة القطعية، و﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[1] [2].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ - ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[3] والمواخر هي المشاق حيث الفلك تشق البحر وكأنها أصبحت «فيه مواخر فيه» حيث الأمواج الهائجة تجعل الفلك في خِضمِّها وهي غائبة غارقة فيها، وكل ذلك ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾:

﴿يُولِجُ﴾ إيلاجاً واقعياً حيث يلج من أفق الليل في أفق النهار شتوياً، وعكسه صيفياً، وآخر في المنظر حيث يلتقيان فجراً ومغرباً، ففي مشهد ولوج الليل في النهار وعكسه وكأنما هناك عراك بين عسكر الليل والنهار، والفتح والفلح لعسكر الليل أحياناً ولعسكر النهار أخرى.

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١٩-٢٢.

(٢) راجع تفسير «الرحمن» في الفرقان ج ٢٧: ٢٨، تجد فيه تفصيل خروجهما من البحرين باختلاف الكم والكيف، وإن البحرين يشتركان في وجود اللؤلؤ والمرجان فيهما كما ويصدقه العلم الباحث عنه الكاشف له.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٤.

وفي الولوجين منظراً وواقعاً آية لكروية الأرض، وإلّا فليكن ليلاً كله أو نهاراً كله!

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ إدارة لهما وسيراً كما سخر لإدارة الكون قَدَر ما قدَّر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ دون من تدعون ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ وهو أثر على رأس النواة، مثلاً للصغر.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾:

لا سماع لدعاء ممن لا سمع له كالأوثان، والذي يسمع كالطواغيت ليس ليسمع إجابة، ولو سمع ليس بإمكانه إجابة، ثم ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ «و» هنا «لا ينبئك» بهذه الحقيقة المرة ﴿مِثۡلُ﴾ القرآن ونبيه ﴿خَبِيرٖ﴾ بواقع الأمور وعواقبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

تعريف الخبر ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ هنا يعني كونه معروفاً فلا يخبر به إلّا للتنبيه، ومن ثم القصر كأنهم هم الفقراء لا سواهم كما الله ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ يحصر الغنى في الله. بيان ناصع لكيان الناس وهم في أحسن تقويم - إذاً - فما هو كيان من دونه في سائر التقويم؟ فهو حجة قارعة لفقر الكون كله، وليس إلا إلى الله الغني الحميد، تقريراً لكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نفياً لأي غنى عن سائر الكون، ثم إثباتاً لكل غني لخالق الكون!

وترى لماذا الحصر ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ كأن سواكم من الخلق أغنياء، أم ليسوا بفقراء إلى الله؟ علّه لما كان المشركون يزعمونهم أغنياء في أنفسهم بآلهتهم، والله هو الفقير إليهم إذ يدعوهم إلى عبادته: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾... [1] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [2]!

لذلك يرد عليهم بمعاكسة ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [3]! فأنتم محصورون في الفقر لا أن الفقر محصور فيكم.

ثم ذلك الفقر الفاقر ضارب إلى الأعماق لحد كأن ليس كيان الإنسان إلّا فقراً: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا أن هناك إنسان أم أياً كان له الفقر إلى الله، بل هو بذاته الفقر إلى الله بذاته الغني، دون إمكانية التحول من ذاتية الفقر إلى ذاتية الغنى وبأحرى المعاكسة، فإنما ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾!

والفقر والغنى وصفان للكائن، فلا يقال للمعدوم المطلق فقير، وآية الفقر تقرر أصل الفقر للإنسان، وتعلقه في فقره بالله وإلى الله، فالفقير الذات وفي الأفعال والصفات بحاجة ضرورية إلى غني في كافة الجهات والحيثيات، فلولا أن هناك كائناً غني الذات، لما كان للفقير كون، أم لو لم يكن حميداً لم يكن للفقير ما يكفيه به ويغنيه، ولولا أنه حميد لم يقرر مصير الحساب يوم الحساب، فهو غني حميد في غناه في النشأتين. إذاً ففي فقر الكائنات من حيث الذات دليل لا مرد له على وجود كائن غني الذات، وإلا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

فأين وجودات الممكنات، حيث الافتقار في أصل الذات وحاقها دليل الحدوث، فمن ذا الذي أحدثها إلّا أزلي الذات وغنيها؟.

وتجد في آية الذاريات (٤٩) أعمق البراهين للفقر الذاتي في الكائنات كلها، حيث الزوجية هي كيان كل كائن سوى الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[1] [2]!.

ومهما كان في الكون غنى نسبية لكائن أمام الآخر، فهما في الفقر إلى الله سواء، كما وهما في أصل الفقر سواء، فأنت الغني في المال بحاجة إلى فقير العمال كما الفقير المال بحاجة إليك في المال، فلكلٍّ فقر من جهة وغنى نسبية من أخرى، وهما في غناهما فقيران إلى الله الذي أغناهما!

أنت ساكن فقير صغير من سكان هذه الأرض، وهي تابعة صغيرة من توابع الشمس، وهي نجم صغير من مليارات الشموس والنجوم في مليارات المجرات والجزائر السماوية، أفأنت الغني والله فقير؟!

أتزعم أن في بعث الرسل إليك، وتواترهم في دعوتك بكتابات السماء، إن في تلك الدعاية الفخمة المتواصلة، والداعية الفخمة الدائبة، حاجة من الله إليك، فحين تستجيب الداعية فللَّهِ فيها حظوة وعزة، وحين تردها فعلى الله هزّه وذلة؟

لا! يا أيتها الحشرة الصغيرة الهزيلة، بل ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

غنيٌ إذ يدرّ عليكم رحمة دون ضِنَّة، حميد إذ لا يحملكم على إنفاقه، ما يعود بنفعه إليه، فالكل عائد إليك في تقواك، وما يد عليك في طغواك.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) راجع الفرقان لتفسير الآية بقول فصل كأعمق البراهين لإثبات وجود الله.